دِرَاسَات عَرَبِيَّة وَإِسْلامِيَّة
دورية علمية محكمة

دراسات عربية وإسلامية العدد الرابع (٤) يناير ٢٠١١م

عقيدة البعث
بين القرآن والتوراة وفكر العلماء

الأستاذ الدكتور

محمد علي حجازي

عقيدة البعث

بين القرآن والتوراة وفكر العلماء

أ.د /محمد علي حجازي

مقدمة:

إن قضية الإيمان بالبعث هي اخطر قضية تلي قضية الإيمان بالله الواحد مباشرة وصحيح أن الإيمان بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله والقدر كل لا يتجزأ.. لكنه صحيح أيضا أن قضية الإيمان بالله الواحد هي أصعب ما واجه الأنبياء تحقيقه في عقول المنكرين ووجدانهم.. ثم كانت أصعب قضية بعد ذلك هي قضية الإيمان باليوم الآخر.

ولذلك كان التركيز علي هذه القضية تركيزا قويا من كل النبيين والمرسلين حتي إذا انتهينا من الوحي الخاتم .. إلي الكلمة الأخيرة والجامعة لوحي السماء إلي القرآن المجيد وجدنا قضية الإيمان باليوم الآخر ،والبعث والجزاء قلّ أن تخلو منها سورة بل إن من سور القرآن ما ليس له موضوع سوي الحديث عن هذا اليوم الموعود.

ولقد كان يغلب علي الوحي المكي أنه يفيض بمشاهد القيامة وأهوالها ،وأخطارها في مواجهة التمرد و العصيان والعناد والإغراق في الكفر وظلمه وظلامه والتربص بالمؤمنين والقعود لهم في كل مرصد. وشن الحروب عليهم بكل وسيلة ،وبغير سبب إلا أن يقوا ربنا الله لهذا السبب كان نزول القرآن يحمل لهم النذر والوعيد الشديد ويكشف عما يخبئه المستقبل يوم يلقون ربهم من ألوان العذاب وشدائده وأهواله ..وكان نزول القرآن بذلك يمثل سوط عذاب يلهب ظهور الكفار .. وحميما متجددا يصب من فوق رؤوسهم كفاء عنادهم الذي لا حد له وعدوانهم الذي ليس له نهاية.. ولما استقر الإيمان وقامت دولة الإسلام أخذ الإيمان باليوم الآخر موقعه المتناسب في قضية الإيمان وهو لزومه للإيمان بالله عز وجل فإذا تحدث عن المؤمنين فهم الذين يؤمنون

بالله واليوم الآخر ،وإذا تحدث عن الكافرين فهم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر .. وإذا تحدث عن المنافقين فهم الذين يزعمون أنهم آمنوا بالله واليوم الآخر(١) .

وهذه هي الشواهد في آيات كلها مدنية فعن المؤمنين يقول تعالي :

"ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين" (٢)..

"ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله و اليوم الآخر ذلكم أزكي لكم وأطهر.."(٣)

"يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وألئك من الصالحين"(٤)

"لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا"(٥)

وعن الكافرين يقول تعالي:"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله و رسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب"(٦)

وعن المنافقين يقول "ومن الناس من يقول بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين...."(٧)

"والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا"(٨)

ومعني استمرار الحديث عن اليوم الآخر والوحي يخاطب مؤمنين بهذا اليوم ،معني ذلك أن الحديث عن هذا اليوم المشهود لم يكن فقط لمواجهة المنكرين به ... كلا .. وإنما ليدل علي أن التذكير به ضرورة إيمانية ، يجب أن تصاحب الإنسان في كل أدوار حياته وأطوارها بل في كل صباح ومساء مع كل هجعة نوم ويقظة فالقرآن يذكرنا أن النوم وفاة أو ميتة صغري ،،،وأن اليقظة بعد النوم هي بعث جديد بعد هذه الوفاة اليومية .

١- دراسات قرآنية سيد قطب ص٦٣ ٢- سورة البقرة آية ١٧٧ ٣- سورة البقرة آية ٢٣٢
٤- سورة آل عمران آية ١١٤ ٥- سورة الأحزاب آية ٢١ ٦- سورة التوبة آية ٢٩
٧- سورة البقرة آية ٨ ٨- سورة النساء آية ٣٨

قال تعالي "الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضي عليها الموت ويرسل الأخرى لأجل مسمي.."(٩)

"وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمي ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون "(١٠)

ومن مأثور أدعية الرسول عند النوم يذكر فيه بالآخرة (..إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أطلقتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين*).

وعند اليقظة (الحمد لله الذي أحيانا بعد أن آماتنا وإليه النشور**)

بل إن القرآن ليجعلنا في حضور دائم مع الآخرة في كل قول و فعل و في كل خاطرة علي قلب .يقول تعالي"ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"(١١)

" وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين "(١٢)

".. وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله علي كل شئ قدير"(١٣)

وقضية الإيمان باليوم الآخر هي قضية فطرية بدأت مع خلق الإنسان ..وبدت مع الحوار الأول بعد هذا الخلق فالجنة والنار كانتا بارزتين في المشهد الأول للخلق فحين خلق ادم اسكنه الله الجنة .. وحين أبي إبليس أن يسجد كان الوعيد بالنار جزاء له ولمن تبعه "قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا"(١٤)

"قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ،قال أخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين "(١٥)

ولما تعرض الشيطان لآدم وأغواه اهبطه الله إلي الأرض وفيما قال الحق تعالي"قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم ف بالأرض مستقر ومتاع حتى حين ،قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون"(١٦).

وقال تعالي أيضا "قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدي فمن اتبع فلا يضل ولا يشقي ، ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنى ونحشره يوم القيامة أعمي..."(١٧)

ومع كل نبي كان الحديث عن اليوم الآخر مستفيضا آخذا مكانه في الأهمية كما ينبغي له أن يكون وهذا نوح عليه السلام يقول لقومه فيما يدعوهم إليه "..والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا"(١٨).

والنبي صالح عليه السلام يقول لقومه " أبعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مبعوثون ، هيهات هيهات لما توعدون ، إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين"(١٩). وهكذا كل النبيين وما الأمر بحاجة إلي استشهاد واستدلال .

٩- سورة الزمر آية ٤٢ ١٠- سورة الأنعام آية٦٠ ١١- سورة ق آية ١٨

١٢-سورة يونس آية ٦١ ١٣- سورة البقرة آية ٢٨٤ ١٤- سورة الإسراء آية ٦٣

١٥- سورة الأعراف آية١٦-١٨ ١٦-سورة الأعراف آية ٢٤-٢٥

١٧-سورة طه آية ١٢٣-١٢٤ ١٨- سورة نوح آية ١٧-١٨

١٩- سورة المؤمنون آية ٣٥-٣٧

*أخرجه البخاري عن أبي هريرة ج٤ص١٠١

**أخرجه البخاري عن أبي ذر ج٤ص٧٧

قضية البعث في التوراة واعتقاد اليهود

إن الأمر الذي يثير العجب.. ويدعو إلي الغرابة والدهشة أن الديانة اليهودية وهي احدي الديانات الكبرى أو هي واحدة من الرسالات الكبرى التي عرفها التاريخ وموسي عليه السلام كبير أنبياء بني إسرائيل والتوراة هي ثاني كتب السماء أهمية ومع ذلك فإن الإنسان ليتملكه العجب وهو يري أن الديانة اليهودية ليس من الإيمان بها الاعتقاد باليوم الآخر والبعث وان كتاب التوراة ليس فيه كلمة صريحة عن اليوم الموعود علي الرغم من كلمات الله الأولي لموسي في اللقاء الأول حيث قال سبحانه "إنني أنا الله لا اله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزي كل نفس مما تسعي.."(٢٠)

علي الرغم من ذلك فان اليهودية المدعاة والتوراة المزورة لا تعرف اليوم الآخر ولا تشير إليه من قريب أو بعيد .

يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي: (وقد كانت الديانة اليهودية في أصلها تقرر البعث والنشور واليوم الآخر والحساب والجنة، والنار كما ينبئ بذلك القرآن الكريم، ولكن أسفار العهد القديم التي بين أيدينا الآن قد خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه.

ومن ثم لا نجد من فرقهم الشهيرة من يؤمن باليوم الآخر علي الوجه الذي يقرره الإسلام ففرقة الصدوقيين تنكر قيام الأموات وتعتقد أن عقاب العصاة وإثابة المتقين إنما يحصلان في حياتهم ، وفرقة الفريسيين تعتقد أن الصالحين من الأموات سينشرون في هذه الأرض ليشتركوا في ملك المسيح الذي سيأتي في آخر الزمن لينقذ الناس من ضلالهم ويدخلهم جميعا في ديانة موسي ، أي أن بعث هؤلاء سيحصل في الحياة الدنيا فمهما يكن من خلاف بين الفرقتين فانهما متفقان في إنكار اليوم الآخر علي النحو الذي يقرره الإسلام)(٢١) .

وكذلك يقول الأستاذ سيد قطب (ولكن بني إسرائيل انحرفوا عن ديانة موسي وأغفلوا ما جاء فيها عن الآخرة فخلت كتبهم الملفقة من ذكرها، كما خلت حياتهم من حسبان حسابها)(٢٢).

ولكنه يعثر علي ما يشبه الاعتقاد باليوم الآخر في بعض فرقهم مثل الفريسيين ومن النصوص الدالة علي ذلك قول بولس في سفر أعمال الرسل، الإصحاح الثالث و العشرين "أنا فريس ابن فريس علي رجاء قيامة الأموات".

لكن ما نقله الدكتور عبد الواحد وافي يفيد بأن الفريسيين تعتقد بالبعث في هذه الأرض مرة أخري في آخر الزمان ليشتركوا في ملك المسيح لينقذ الناس من ضلالهم ويدخلهم جميعا في ديانة موسي عليه السلام .

بل إن الدكتور وافي يسجل عليهم أنهم (من ألد أعداء المسيح ، وأنهم هم الذين حاولوا أن يظهروه بمظهر الداعي إلي شق عصا الطاعة علي قيصر ، وكانوا علي رأس المتآمرين به و لم ينفكوا يدبرون له الكيد حتى حكم عليه بالصلب)(٢٣)

ولكن قد يبدو هنا تساؤل وهو حديث القرآن عنهم وعن النصارى في قوله تعالي:" وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى "(٢٤)

يذكر الدكتور وافي ردا علي ذلك أن في كتابهم الثاني و هو التلمود وردت في بعض فقراته عبارات عن الجنة والنار لكنها في سورة مضربة أدني إلي الخرافة والأساطير منها إلي الحقائق العلمية أو العقائدية (تذكر هذه الفقرات أن الجنة تأوي إليها الأرواح الذكية وأنه لا يدخلها إلا اليهود وأن أهلها يطعمون من لحم أنثي الحوت المملحة التي تقدم ذكرها، كما يتناولون لحم طير كبير لذيذ الطعم و لحم إوز سمين وإن شرابهم فيها نبيذ معتق عصره الله في اليوم الثاني من الأيام التي خلق فيها العالم، وأن النار لغير اليهود من المسلمين و المسيحيين ومن إليهم .. ويظهر أن القرآن يشير إلي هذه الفرق ويرد عليها..

٢٠- سورة طه آية ١٥-١٦ ٢١- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة علي الإسلام ص٣٤

٢٢- مشاهد القيامة ص٣٠ ٢٣- الأسفار المقدسةص٥٥ ٢٤- سورة البقرة آية١١١

و في هذه الأمور جميعا دليل آخر علي أن أسفارهم هذه كلها من صنع أيديهم. ومبلغ الخلاف بين توراتهم المزعومة والتوراة الصحيحة التي أنزلها الله تعالي علي موسي نورا و هدي للناس)(٢٥) .

وهذا ومن العجيب أن نري صورة مقابلة لذلك تماما في الديانات الوثنية.. فبينما اليهودية وهي دين سماوي ولها كتب وهو أشهر كتب السماء بعد القرآن وصاحبها نبي وثالث رسل الله مرتبة ومنزلة بعد سيد الأنبياء وأبي الأنبياء محمد وإبراهيم عليهما السلام بينما اليهودية التي هذه منزلتها لا تعرف اليوم الآخر ولا تعترف به نجد في الديانات الوثنية من تجعل للبعث والحساب وقيامة الأموات أهمية كبري بل إنه لتقوم علي هذه العقيدة أعظم حضارات الأرض قديما وهي حضارة مصر القديمة التي لا تزال تذهل العالم بما وصلت إليه من تفوق علمي وفني لا تزال حتى الآن إعجازا من الإعجاز البشري.

يقول الأستاذ سيد قطب(فحوالي سنة ٢٦٠٠ قبل الميلاد "أيام الأسرة الخامسة"إن لم يكن قبل ذلك كان هناك عالم آخر يتوقعه المصريون ، وكان للخير والشر جزاء في هذا العالم الآخر ، وفي هذا الوقت لم تكن هذه العقيدة مقصورة علي الكهنة ورجال الدين بل انتشرت في الأوساط الشعبية بما يدل علي أن جذورها ترجع إلي ما قبل هذا التاريخ).

ثم يُنقل عن المرحوم الأستاذ عبد القادر حمزة في كتابه " علي هامش التاريخ المصري القديم " قوله:

(وفي هذا الوقت كانت عبادة "أوزوريس"قد أخذت تنتشر وتصير عبادة شعبية، وعبادة أوزوريس أساسها الأول أن كل إنسان ملكا كان أو فردا عاديا مسئول بعد الموت عن أعماله في الدنيا أمام محكمة إلهيه ، يتولى القضاء فيها "أوزوريس" نفسه ويساعده فيها توت وأفونيس وحوريس ومعات واثنان وأربعون قاضيا فإذا حكمت المحكمة بأن حسنات الميت ترجح سيئاته كوفئ بالنعيم الخالد وصار مثل أوزوريس ، أما إذا حكمت المحكمة بأنه أساء في

حياته فجزاؤه أن يفترسه الوحش ، أو أن يلقي في النار ، أو أن يضرب عليه نوع آخر من أنواع العذاب)(٢٦)

وبعد ألف سنة عرف البابليون "الكلدنيون" شيئا عن العالم الآخر (ثم تمضي ألف سنة أخري حتى نري فكرة العالم الآخر تبرز عند الفرس في ديانة "رزادشت" وعند الإغريق في أساطيرهم التي يعتمد عليها "هوميروس" في ملحمته "الأوذية ")(٢٧)

و الذي لا شك فيه أن هذه العقيدة قد انتقلت إليهم من ديانات التوحيد وأنها كانت من أثر رسالات السماء . فقد (كان يحدث بعد كل رسالة أن ينحرف الناس عن استقامة العقيدة السماوية، فيخلطوا بها أوشابا من الوثنية وتصوراتها السابقة علي الرسالة السماوية واللاحقة لها ، ومن بقايا العقيدة الصحيحة ومن هذه الاوشاب الخليطة كانت تتألف عقائد وثنية جديدة قد تترقي مع الزمن بتكرار الرسالات وتأثيرها المستمر في مستوي الوثنيات التي ترتد إليها البشرية) (٢٨)

وهكذا كانت عقيدة اليوم الآخر فهي في أصلها عقيدة الفطرة منذ خلق الإنسان الأول وقد تضمنها كل دين سماوي ، ودعت إليها كل رسالات السماء فهي اصل من أصول الاعتقاد يقترن دائما مع الإيمان بالله الواحد. غير أن هذه العقيدة كانت تتأثر بانتكاس الفطرة في الإنسان.. وما ينحدر إليه في بعض الأحيان فيكفر حتى يكون أ ضل من الحيوان "و الذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم "(٢٩)

"أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون"(٣٠)

٢٥-الأسفار المقدسة ص٣٤-٣٥ ٢٦- مشاهد القيامة في القرآن ص١٤-١٥

٢٧- مشاهد القيامة في القرآن ص٢٠-٢١ ٢٨- مشاهد القيامة في القرآن ص١٤

٢٩- سورة محمد آية١٢ ٣٠- سورة الأعراف آية ١٧٩

بل إن الإنسان قد يغرق في الشر ويغالي فيه حتى يتجاوز الشيطان ويصبح الشيطان تابعا له بعد أن كان الرائد والإمام قال تعالي "و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلي الأرض وأتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك ممثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فأقصص القصص لعلهم يتفكرون"(٣١)

إلي هذا المستوي قد ينحدر الإنسان بنفسه فيلتوي عن عبادة الحق و يُعمي عن نور الله فيبدل نعمة الله كفرا . ويغير من وحي الله فينكر اليهود مثلا القيامة وبعث الناس للحساب .. وتنتشر هذه الفرية في كل جمع أو مجتمع فاجر كافر.. لكن لما كانت هذه العقيدة نداء الفطرة وأنها "صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة"(٣٢) كانت تتخلل العقائد الوثنية وتفرض نفسها علي الفكر الوثني فشاعت في المصريين والكلدانيين والإغريق وإن كانت مخلوطة بأوشاب الكفر وأوهامه وترهاته .

٣١-سورة الأعراف آية١٧٥-١٧٦ ٣٢-سورة البقرة آية ١٣٨

البعث ضرورة دينية وضرورة عقلية

إن عقيدة اليوم الآخر كما أنها ضرورة دينية وحتمية عقدية هي في الوقت نفسه تمثل ضرورة عقلية تكمل التصور الصحيح لفكرة الحياة عند الإنسان والا فانه كما تقول بنت الشاطئ "إن تكن الحياة لا تعدو هذه المرحلة من المهد إلي اللحد فما أبشعها من مأساة تدعو إلي القنوط وتحقق في الأحياء منا إرادة الحياة "(٣٣)

أو كما يقول شيخنا الغزالي "ولو كان العيش في هذه الدنيا كل شئ لكان الانتحار العاجل أولي بالناس أجمعين "(٣٤)

وفي محاولة أنها ضرورة إنسانية يري الأستاذ سيد قطب أن ذلك يرجع إلي ينابيع ثلاثة كل منها تحتم أن تكون هناك آخرة يعود إليها الإنسان ليصحح مسار الحياة وتكون هذه الحياة الدنيا أمرا معقولا ومقبولا .

النبع الأول : هو أن رغبة الفرد في أن يعيش رغبة فطرية ، وحاجاته علي الأرض لا تنقضي وآماله غير محدودة . ولكنه يموت :

يموت وفي نفسه حاجات ، ويترك علي الأرض آماله ، كما يترك من خلفه أعزاء يفجعه أن يفارقهم ، ويفجعهم أن يغيب ، فهلا كان اللقاء بعد ذلك المغيب ؟

النبع الثاني : أن الإنسان يري(كثيرا ما ينتصر الشر علي الخير ، وتعلو الرذيلة علي الفضيلة ، والفرد ــ في عمره المحدود ــ لا يشهد رد الفعل ، ولا يري عواقب الخير والشر فهلا كانت هناك كرة يلقي فيها الشر جزاءه وينتصر فيها الخير ، وينال الفضلاء الخيرون ما يستحقونه من علو وكرامة.

النبع الثالث : أن مصير الإنسان الذي عمر الأرض ، وصنع فيها ما صنع هل يصح أن يكون كمصير أية حشرة أو دابة أو زاحفة : حياة قصيرة محدودة لا يتم فيها شئ كامل أبدا ، ثم ينتهي كل شئ إلي الأبد ، إن الإنسان يعز عليه أن يكون له مثل هذا المصير البائس المهين).

(من هذه الينابيع التي تفجرت في الضمير الإنساني.. قامت فكرة العالم الآخر)

وهذه الينابيع هي الإنسانية في أعمق أعماقها ، وأعلي آفاقها(٣٥).

وفي محاولة عقلية مجردة وفي اجتهاد فكري فلسفي محض بعيد عن أي مؤثر ديني يعرض لنا الدكتور يوسف موسي فكرة فيلسوف ألماني شهير هو الفيلسوف" كانت " عن اليوم الآخر كضرورة عقلية صرفة فيقول عنه :

(إنه يري أن الاتحاد بين الفضيلة والسعادة غير واقع في هذه الحياة ، بل غير ممكن أيضا ، وتلك المشكلة يجب حلها . وقد رأي في حلها حل عقليا ، أنه لا بد من فرض وجود الله وخلود الروح ، وجعل هذا من بدائه علم الأخلاق ومسلماته ، وأن يكون الإله كامل العلم ، ليعلم تماما قيمة كل إنسان وعمله وما يستحقه من سعادة ، كما يكون كامل القدرة ليتخطى قوانين الطبيعة التي لا تربط بين الفضيلة والسعادة برابطة العلة والمعلول ويثيب الفاضل .

كما يري أن هذا كله لا يكون علي كماله إلا في الدار الآخرة التي يكون فيها الخير جزاء الفضيلة ، والشر جزاء الرذيلة ، ولهذا يكون التسليم بذلك أمرا ضروريا في علم الأخلاق).

ثم يعلق الدكتور يوسف موسي فيقول :" وهكذا نري أن البعث والانتقال من هذه الحياة الدنيا إلي الحياة الأخرى الخالدة أمر يتفق فيه العقل والدين ، أو كما يقول الفيلسوف بن رشد ، هو أمر اتفقت عليه الشرائع وقامت عليه لبراهين عند العلماء"(٣٦)

وتحت عنوان : أسئلة فطرية يقول الأستاذ سعيد حوي في كتابه الإسلام أن الإنسان يشعر

٣٣- القرآن وقضايا الإنسان ص١٥١ ٣٤- عقيدة المسلم ص٢٣٣ ٣٥- مشاهد القيامة في القرآن ص١٣-١٤ ٣٦- الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص١٥٨- ١٥٩

بالحزن أكثر مما يشعر بالفرح ، وبالألم والنكبة أكثر مما يشعر بالراحة والنعمة ، فإن كل شئ إذا كان أسرع صدمة لأحاسيسه كان اكثر تحريكا لقوة فكره ، ألا تري أننا حين نحصل علي شئ فقلما نتساءل من أين جاء؟ وكيف جاء ، والي متي يبقي عندنا ؟

ولكن حين نفقد شيئا فان الحزن عليه يصب علي مخيلتنا صوتا قويا وهناك نجد نفسنا نتساءل : كيف ضاع ..؟ وأين ذهب ..؟ وأين عسي أن يكون ؟ وهل عسي أن تعثر عليه مرة أخري ؟

ولأجل هذا فإن السؤال عن مبدأ الحياة لا يهمنا بقدر ما يهمنا السؤال عن الموت وما بعده .

ولعل الدنيا ليس فيها فرد واحد يشاهد هذه الحوادث ثم لا يقلقه السؤال عن الموت ولا يتساءل .. ما هذا الموت ؟ وأين يقضي الإنسان بعد اجتياز بابه ؟ وماذا وراء هذا الموت؟

هذا السؤال عام تفكر فيه العوام والخواص جميعا من الفلاحين العاديين إلي الفلاسفة والحكماء الكبار (٣٧).

ثم إن العقل يقرر أنه لو كان العيش في ظل فكرة البعث يحقق في الحياة أمنا واستقرار ، وصلاحا وإصلاحا فأولي لكل إنسان أن يعتقدها كسبب استقرار وعامل يساعد علي نجاح مسيرة الحياة وإيجابيتها في اتجاه الخير والفضيلة.

وأيضا إنها عقيدة لا ضرر فيها ولا ضرار ، ولا ضير منها علي الإطلاق وليس لها أي مؤثر سلبي يعود علي الفرد أو المجتمع أو الحياة يقول أبو العلاء :

قال المنجم والطبيب كلاهما :. لا تحشر الأجساد قلت إليكما

إن صح قواكما فليس بضائر :. أو صح قولي فالخسار عليكما

إن لم تعد بيدي منافع بالذي :. آتي فهل من عائد بيديكما

ومن هنا فالإيمان بذلك يمثل العقل والحزم وهو الصلاح والإصلاح، وهو الوجه الايجابي للحياة، وهو معين للعطاء والإثراء بكل جميل وخير ونفع يسعد به الناس بينما افتقاد هذا الاعتقاد يحول الحياة إلي غابة والأحياء إلي أنعام.. ولأصبح قانون المنفعة هو سيد القوانين ولذلك تصبح الحياة لونا من الجحيم أو ألوانا من العذاب فيشقي الناس بالحياة وتشقي الحياة بالناس.

إن العقل المجرد يقول أليس من شك أن عالمنا موجود وحاصل بالفعل ، وبدهي الوقوع، وإذا كان هذا العالم ممكنا ، فإيجاد عالم مماثل له يكون ممكنا بالضرورة لأن وجود أحد المتماثلين يدل علي المماثل الأخر.

وإن لم يكن مماثلا ولو سألنا إنسانا هل يستطيع باني الدار أن يبني مثلها لاستغرب هذا السؤال لأن جوابه معه ، ويدل عليه بنفسه"(٣٨) وهكذا تبدو عقيدة البعث من جانب عقلي بحت أمرا ممكنا بل أمرا ضروريا وحتمية عقلية توفر للقلب طمأنينة . وللعقل اقتناعا بتصور صحيح ومقبول للحياة .. وراحة نفسية.. وأمنا واستقرارا لمسيرة الحياة..

أما كون البعث ضرورة دينية فهو وإن كان أمرا بدهيا لا يحتاج إلي بيان بعد أن قدمنا لذلك أول الحديث وعلمنا أن الحديث عن البعث قلما تخلو منه صورة من صور القرآن بل أن صور بأكملها ليس فيها من حديث غير البعث . ورأينا ارتباط الإيمان بالله بالإيمان بالبعث فلا إيمان بالله إلا مع الإيمان بالبعث قال تعالي " وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون"(٣٩)

أقول علي الرغم من أن هذا بدهي ومعلوم من الدين بالضرورة إلا أني أري نظرا لخطورة الموضوع _ أن أقدم كلمة قصيرة في هذا المعني وهو بيان أن البعث ضرورة دينية فأقول وبالله التوفيق :

٣٧- الإسلام الجزء الرابع ص١٠٩ ٣٨- فلسفة المبدأ والميعاد تأليف محمد جواد ص١١٩

٣٩- سورة الزمر آية ٤٥

أولا _ إن كتاب الله عز وجل يقول " وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون" (٤٠) وما هذه الدنيا بما فيها إلا ما يمثله المحدود بجانب غير المحدود والنهائي بالنسبة إلي اللا نهائي قال تعالي " وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع"(٤١) ولهذا فإن الذي ينبغي للإنسان المؤمن أن يبتغي في كل شئ هذه الحياة الحقيقية لأن الدنيا بالنسبة لها نصيب محدود جدا . وما بعث رسول الله (ص) إلا ليعلمنا ذلك وليكون لنا فيه القدوة والإمام قال تعالي "وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا "(٤٢) وقال سبحانه "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا"(٤٣)

ثانيا _ إن الحياة الدنيا إنما تمثل دار الابتلاء والاختبار والامتحان الكبير الذي تكو نتيجته وثمرته هي الدار الآخرة بما تمثله من نعيم مقيم لا ينفد لمن نجح في هذا الابتلاء أو عذاب أليم لا ينتهي في جهنم وبئس المصير لمن فشل في هذا الابتلاء .

قال تعالي " لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها"(٤٤)

إن الفكر الديني يقول : لقد خلق الله عز وجل الإنسان وجعل الابتلاء في مادة خلقه واصل تكوينه فقال تعالي " إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا"(٤٥).

ولقد استخلف الله الإنسان في الأرض وأودعه أمانة التكليف التي تحملها بعد أن عرضت " علي السماوات و الأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان "(٤٦) ولصعوبة حمل هذه الأمانة ولخطر الابتلاء بالتكليف جعل الله بعض العطاء وجزءا من الجزاء لمن وفي ، أمة أو فرد فقال تعالي للأمة التي يتقي بأمر الله " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضي لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون"(٤٧).

وللفرد يقول سبحانه" من عمل صالحا من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون "(٤٨)

ثالثا_ الله سبحانه قال عن حكمة خلق الإنس والجن " وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون"(٤٩) ولم يكن الإنس والجن هما الجنسان العابدان بل كل المخلوقات تعبد الله وتسبح بحمده وتقدس له " تسبح له السماوات السبع ومن فيهن وان من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا "(٥٠) .

لكن غير الجن والإنس لم يجعل الله له حرية في أن يعبد أو لا يعبد أن يطيع أو لا يطيع فالملائكة "عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضي وهم من خشيته مشفقون "(٥١).

وقال عن السماوات السبع " فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين"(٥٢)

فلم يجعل الله الخيرة إلا للإنسان والجان ورتب علي حرية الاختيار بين الإيمان والكفر وبين الخير والشر الذين قال فيهما " وهديناه النجدين""أنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا " رتب علي ذلك الجزاء إلا وفي يوم القيامة إما جنة أبدا لمن آمن واتقي وصدق بالحسنى ، أما نار أبدا لمن بخل واستغني وكذب بالحسنى .

٤٠- سورة العنكبوت آية ٦٤ ٤١- سورة الرعد آية ٢٦ ٤٢- سورة القصص آية٧٧ ٤٣- سورة الأحزاب آية ٢١ ٤٤- سورة فاطر آية ٣٦ ٤٥- سورة الدهر آية٢ ٤٦- سورة الأحزاب آية ٧٢ ٤٧- سورة النور٥٥ ٤٨- سورة النحل ٩٧ ٤٩- سورة الذاريات ٥٦ ٥٠- سورة الإسراء ٤٤ ٥١- سورة المؤمنون٢٦-٢٨ ٥٢- سورة فصلت ١١

بل إنه سبحانه وتعالي من أجل أن تكون الحدود فاصلة ، والأحكام قاطعة ، ومعالم الخير والشر علي المحجة البيضاء لا لبس فيها ولا خفاء أرسل سبحانه رسلا من البشر مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه فلا يكون بعد ذلك للناس علي الله حجة بعد الرسل .

كل هذا لأن هناك ابتلاء كبير سيواجه الإنسان ويعيش بسببه في صراع عنيف لا ينجو منه إلا القليل ممن رحمهم الله .

وهذا الابتلاء من أكثر من جهة كل جهة أكبر من أختها .. وأول ذلك الشيطان عليه لعنة الله وكان أول ابتلاء للإنسان به في الجنة وقد استطاع أن يخرج آدم من الجنة بعد أن أغواه . قال تعالي " يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سؤاتهما انه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم أنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون "(٥٣).

والثاني في قائمة معاول هدم الإنسان النفس الأمارة بالسوء ويكفي الابتلاء بها أنها كانت وراء أول وأكبر جريمة قتل وقعت في هذه الأرض ومن أخ ضد أخيه قال تعالي " فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين "(٥٤).

وثالثة الأثافي هذه الشهوات التي حذر القرآن منها فقال تعالي " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عند حسن المآب"(٥٥)

وتأسيسا علي كل ما سبق نستطيع القول بأن كل ما في الحياة وما تحت أيدي الناس يمثل في وجه منه ابتلاء من الله عز وجل .

فكل ما تعطيه الأرض للناس ابتلاء " إنا جعلنا ما علي الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا "(٥٦) بل إن في هبة الحياة وسلبها بلاء " الذي خلق الموت والحياة ليبلوك أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور "(٥٧) وكذلك حكم الله في كل نعمة تعطي أو تؤخذ وفي كل خير يمنح أو يمنع قال تعالي "

ونبلوكم بالشر والخير فتنة"(٥٨) وقال سبحانه " فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا .. " (٥٩)

إن الله إذا أعطي ناسا ومنع آخرين فذلك ابتلاء للمعطي فيما أعطاه وللممنوع فيما منعه .. وهذا التفاوت بين الناس في الدرجات بعض سببه هو هذا الابتلاء كما قال تعالي " ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما أتاكم "(٦٠) .

بل إن اختلاف المناهج والشرائع بين الأمم فيه هو الآخر بلاء كما يتضح ذلك من خلال قوله تعالي " وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم فاستبقوا الخيرات إلي الله مرجعكم جميعا فينبئكم فيما كنتم فيه تختلفون "(٦١).

وعلي طريق التربية أو كما هو منطق القرآن : التزكية والعبرة يقص علينا القرآن نماذج لذلك سواء ابتلاء العطاء أو ابتلاء الضراء وفي الأول يذكر الله عن سليمان عليه السلام الذي أعطاه الله كما دعي ملكا لا ينبغي لأحد من بعده وفي مشهد عجيب يذكره القرآن المجيد يطلب سليمان من الملأ حوله من يأتيه بعرش ملكة سبأ " قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر .. (٦٢)

٥٣- سورة الأعراف آية٢٧ ٥٤- سورة المائدة آية ٣٠ ٥٥- آل عمران آية١٤
٥٦- سورة الكهف آية٧ ٥٧- سورة الملك آية٢ ٥٨- سورة الأنبياء آية ٣٥
٥٩- سورة الفجر آية ١٥-١٧ ٦٠- سورة الأنعام آية ١٦٥ ٦١- سورة المائدة آية٤٨ ٦٢- سورة النمل آية ٣٩-٤٠

والشاهد هنا أن النبي الصالح سليمان عليه السلام كان تعليقه علي العطاء الرباني العجيب أنه ابتلاء منه سبحانه ليري أيشكر عبده أم يكفر .

أما نموذج الضراء فنختار له العبد الصابر نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لقد أُبتلي في بدنه بضر صبر معه طويلا حتى امتدحه القرآن الكريم وسجل بلاءه وصبره الجميل والطويل والذي لم يزد في نهايته إلا أن قال مناجيا ربه " ربي أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين "(٦٣) وسرعان ما استجاب الله له فكشف عنه ضره وزاد في عطائه جزاء صبره قال تعالي "فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه وأهله ومثلهم رحمة من عندنا وذكري للعابدين"(٦٤) . وفي مدحه يقول عنه ربه عز وجل " .. إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب"(٦٥) هذا والابتلاء بالضر أو ما يحسبه الناس شر هو الابتلاء الظاهر حتى ليقصر بعض الناس الابتلاء عليه لأنه الأكثر والأظهر ولأنه لا تخلو منه نفس ولا يشد عن الابتلائية أحد فلقد أقسم الله أن يبتلي به كل الناس فقال تعالي مقسما ومؤكدا " ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين "(٦٦)

وإنما كان هذا هو العموم والشمول لان الله عز وجل يريد أن يميز بين الخبيث والطيب والصادق والدعي والمحق والمبطل فان دعوى الإيمان ليست أمرا هينا ولا شيئا صغيرا وإنما هي الحقيقة الكبرى في دنيا الناس ، والعهد الذي يربط بين السماء والأرض أو بين الله والإنسان .. ويأبى الحق عز وجل أن يجعلها مجالا للمتاجرة بين الكذبة والادعياء .. أوان يجعل أمرها هونا يلهو به العابثون وآهل الصغار . فأراد الله عز وجل أن يفصل بين أهل الصدق وأهل الزيف وبين من يعبد الله علي حق وبين من يعبده علي حرف ..فجعل سبحانه الابتلاء حدا فاصلا بين أولئك وهؤلاء قال تعالي " أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين "(٦٧)

وقال سبحانه : " ما كان الله لينذر المؤمنين علي ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب"(٦٨) وقال عز من قال " ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا خباركم.. "(٦٩) .

وهناك باب آخر من أبواب البلاء هو أهمها وأخطرها علي الإطلاق ولهذا كان موقعه من الدين ومكانه ذروة السنام فلقد جاء في صحيح حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم" رأس الأمر الإسلام ، وعماده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله* " .

والجهاد في سبيل الله ضرورة دينية فإن الكفر بطبعه ظلوم عدواني . والكافر بالتالي ظلوم جهول لا يدخر جهدا في إلحاق الأذى بالإيمان والمؤمنين والمؤمنون مطالبون أن ينشروا نور الإسلام .. وأن ينقلوا إلي كل عقل وقلب نعمة الإيمان .. ثم إنهم في عزة بدينهم ، وفي كرامة بإيمانهم " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين "(٧٠) ولهذا كان لا بد أن يحتدم الصراع بين الإيمان والكفر وبين حق الله وباطل الإنسان .. فالكافرون يقعدون للمؤمنين كل مرصد ويجاهدون ليطفؤا نور الله بأفواههم، ويجادلون لاحتواء المؤمنين " ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم"(٧١) ولن ينتهوا عن المؤمنين حتى يعيدوهم إلي ملتهم قال تعالي :

* " ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء" (٧٢)
* " ولن ترضي عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم " (٧٣)
* " إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله .." (٧٤)

٦٣،٦٤- سورة الأنبياء آية ٨٣-٨٤ ٦٥- سورة ص آية ٤٤ ٦٦- سورة البقرة آية ١٠٥ ٦٧- سورة العنكبوت آية٢-٣ ٦٨- سورة آل عمران آية ١٧٩ ٦٩- سورة محمد آية ٣١ ٧٠- سورة المنافقون آية ٨ ٧١- سورة الأنعام آية ١٣٧ ٧٢- سورة النساء آية ٨٩ ٧٣- سورة البقرة ١٢٠ ٧٤- سورة الأنفال ٣٦

* أخرجه الترمذي عن معاذ بن جبل ج٥ ص١٢

* " لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة " (٧٥) وغير ذلك كثير ..

وتأبي كرامة الإيمان وعزة الإسلام إلا أن يدفعوا الظلم بالعدل وان يضربوا الباطل بالحق .. وان يزهقوا بالإيمان الكفر وصدق ربنا " وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم "(٧٦) وكان يمكن للحق عز وجل أن يخسف بهم الأرض أو أن يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون لكنه كما قال تعالي " ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم .."(٧٧) وفي ذلك ولاشك رفع راية وعزة وكرامة وإعلاء مقام لقوم مؤمنين " قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله علي من يشاء والله عليم حكيم"(٧٨) .

وأخيرا تبقي كلمة لا بد منها في نهاية هذا الحديث نعلق بها علي حياة الابتلاء أو ابتلاء الحياة وهي : ليس معني ذلك أن هذه الدنيا لا تعرف غير الكبد وغير هذا الوجه الصعب .. ولا تعرف سوي المعاناة وحسب .. وأن كل النتائج في الدار الآخرة .. والجزاء جميعه في يوم الدين كلا .. وكلا .. فان هذه الحياة لا بد وأن تري نصيبا من هذا الجزاء .. وبعضا من هذا العطاء.. وبشريات لما سوف يكون يوم الجزاء الأكبر .. حتى يمكن للناس أن يقبلوا عليها .. وأن يعمروها .. ليحققوا ما قال الله " هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها "(٧٩) ولأجل أن يتميز فيها الحق ويمتاز فيها أهله وينكشف النقاب فيها عن وجه الباطل وتزول دولته " ليهلك من هلك عن بينه ويحيي من حي عن بينه "(٨٠)

ثم ليثبت قدم الناس في البلاء .. وليربط الله على قلوب أهل الإيمان من أصحاب البلاء.. فمثلا الجهاد في سبيل الله أمر يتعلق بالدين وبحق الله وبكلمة التوحيد وبكرامة الحق وأهله وعزة الأيمان والمؤمنين .. ولان العطاء فيه يكون بأغلى ما يملك الإنسان وهو النفس والمال. والإنسان لا يحرص على شئ حرصه عليهما فلو لم يكن ما يضحي في سبيله أغلى وأقوى منهما لن

يقدم على ذلك .. ولهذا جعل الله للمجاهدين أجرا في الدنيا . فضمن لهم نصرا عزيزا في الحياة وعدا منه تعالي مؤكدا .. لكن بشرط أن يكون الهدف إعلاء كلمة الله .. وأن يعد المؤمنين ما استطاعوا من قوة .. وأن يصدقوا الله ما وعدوه هنا لا يتخلف عنهم النصر لأن النصر بيد الله وهو غالب علي أمره قال تعالي " وكان حقا علينا نصر المؤمنين "(٨١) " وإن جندنا لهم الغالبون"(٨٢) " كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز"(٨٣) وقد قال عليه السلام " نصرت بالرعب مسيرة شهر" .

وهكذا يجعل الله للمجاهدين ثمرة معجلة في الدنيا .. وللجهاد نتيجة حاسمة في هذه الدنيا قتلوا عدوهم أو قتلوا غنموا أو لم يصادقوا مغنما فقد قال تعالي " ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما "(٨٤).

ولن يتخلف هذا الوعد من الله أبدا إلا إذا أخلف المؤمنين ربهم ما وعدوه وعصوا أمر ربهم ونبيهم وهذا ما كان يوم أحد وحنين .

ومن ذلك أيضا ما يتعلق بالظلم والظالمين وعقوق الوالدين مثلا فالمظلوم ينصر الله دعوته ولو بعد حين ولو كان الظالم مسلما والمظلوم كافرا .. وعقوق الوالدين يعجل الله جزاءا عليه في الحياة قبل الممات .

ثم أهل البلاء إذا اشتد يعجل لهم من خزائن رحمته ما يربط علي قلوبهم كما جاء ذلك في حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم " من استرجع عند المصيبة فقال أنا لله وإنا إليه راجعون جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا يرضاه" وكما حدث مع نبي الله أيوب وإبراهيم وغيريهما ...

٧٥- سورة التوبة ١٠ ٧٦- سورة البقرة ٤٩ ٧٧- سورة القتال ٤ ٧٨- سورة التوبة ١٤-١٥ ٧٩- سورة هود ٦١ ٨٠- سورة الأنفال ٤٢ ٨١- سورة الروم ٤٧ ٨٢- سورة الصافات ١٣٧ ٨٣- سورة المجادلة ٢١ ٨٤- سورة النساء ٧٤

ومثل ذلك أهل السخاء والعطاء يرجون ما عند الله يجعل الله لهم بشريات وبشريات كما قال الله تعالي " لان شكرتم لأزيدنكم "(٨٥) مصداقا لقول الله " لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة "(٨٦) ولقد جاء رجل إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال : إني أعمل العمل في السر ابتغي به وجه الله فأصبح فأري الناس يتحدثون به فينشرح لحديثهم صدري أمن الرياء ذلك يا رسول الله قال صلي الله عليه وسلم " لا ذلك عاجل بشري المؤمنين *" وتلا قوله تعالي " لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة " ..

والأمر الأكثر أهمية أيضا في تعجيل شئ من الجزاء في الدنيا أن طبيعة البشر علي ما خلقها البشر مؤسسة علي العجلة قال الله ذلك في أكثر من سورة " خُلق الإنسان من عجل " (٨٧)

" وكان الإنسان عجولا"(٨٨) .

٨٥- سورة إبراهيم ٧ ٨٦- سورة يونس ٦٤ ٨٧- سورة الأنبياء ٣٧ ٨٨- سورة الإسراء ١١

* رواه مسلم عن أبي ذر قاله في دليل الفالحين ج٨ ص١٨١

شبهات المنكرين للبعث

واستدلالات القـــرآن علـيها

كما سبق أن ذكرنا أن الكتاب العزيز قد عني بقضية البعث كما لم يعن بقضية أخري وجعلها قرينة الإيمان بالله الواحد .

وفي عناية القرآن المجيد بها لم يكتف بالحديث عنها مؤكدا عليها .. وداعيـا إلي مراعاتها عند كل قول وفعل وفكر .. كما لم يكتف بذكر حديث الأنبيـاء عنها والدعاة إلي الله والاستدلال عليها بكل أنواع الاستدلال .

بل انه عرض للوجه الآخر لمن ينكرون هذا الاعتقاد .. ويقفون منه موقـف العداء ويسخرون به وبالمؤمنين بوقوعه ، ويحاولون إيـراد الـشبه عليـه ، والشغب حوله بالجدل العقيم الذي لا طائل من ورائه بما يشبه شغب إبليس لما استكبر أن يسجد لآدم .. أن الحق أبلح والباطن لجلج ، ونور الحق من نـور الله لا يطفئه ريح الباطل ولا يحجبه الضباب الذي يلجأ إليه كل مسرف مرتاب . فما هي هذه الشبهة التي تعلل بها الكاذبون وأطلقها المفسدون فـي الأرض ..؟

ولكن قبل الإجابة يجدر التنبيه إلي أمرين :

الأول : أن إنكار البعث لم يكن اعتقادا متفقا عليه بين كل الوثنيين والمشركين وقد سبق أن فكرة البعث والحياة الآخرة بعد الموت عُرفت قبل خمـسة آلاف سنة تقريبا في مصر وقامت علي أساسها الحضارة المصرية القديمة ثم انتقلت بعد ذلك إلي الكلدانيين بعد ألف سنة وتمضي ألف أخري قبل أن تنتقـل إلـي الفرس .

وذلك دليل علي أنه اعتقاد متجاوب مع الفطرة .. وأن الذين يصدون عنـه لا يمثلون حقا أجمع عليه كل الناس .. وإنما هو غي الشيطان وتلبـيس إبلـيس مهما كثر عددهم .. وتضاعف جمعهم.

الأمر الثاني : أن بعض الكتاب المسلمين وقع تحت تأثير كتابات الغرب التي تأسست علي فكرة النشوء والارتقاء الدار ونية فيكتب عن عقيدة اليوم الآخر وكأنها تطور لفكر الإنسان في صراعه من أجل البقاء ..

تقول الدكتورة بنت الشاطئ ".. ومن قديم حاولت البشرية قبل عصر الأديان أن تقاوم فكرة العدم وكأنها أدركت بفطرتها أن كل مغريات الوجود لا تكفي لحماية الإنسان من رفض حياة تنتهي حتما بهذا المصير الرهيب . ولعلها في عصورها البدائية ، كانت مدفوعة إلى هذه المقاومة بغريزة البقاء أو محكومه بالسنن ألكونيه التي تريد لهذه الحياة أن تستمر .."(٨٩)

ثم تقول : (وكانت عقيدة البعث في الديانة المصرية القديمة محاوله مستبسلة لمقاومه فكرة العدم بعد الموت ، وهذه العقيدة هي التي هيأت لإنسان وادي النيل قدرته المبدعة على بناء الحضارة البشرية الأولى .

كما كانت عقيدة التناسخ عند الهنود ، محاوله أخرى للفرار من فكرة الفناء الأبدي بالموت.

وأطال الفلاسفة الاقدمون التأمل في (الكون والفساد) فظهر القول بخلود الروح تعزية لهذا الإنسان عن بلى جسده.

على حين اتجه الشعراء وأصحاب الفن إلى التماس العزاء من الأمل في بقاء ما يخلقون ويبدعون ، بعد إن يرحلوا عن الدنيا أو مآب .. وهنا قالت :

" وجاء عصر الرسالات الدينية المعروفة لنا ، والبشرية تناضل في سبيل استبقاء إرادة الحياة من التدمير الذي يحيق بها أن هي استسلمت لليقين بالعدم ، فبشرتها رسالات الدين بحياة أخرى بعد الموت ، يرتهن مصير الإنسان فيها بما قدمت يداه في الحياة الدنيا (٩٠) وهكذا كأن الدين جاء بعد الصراع المضني لإرادة الحياة ومقاومة فكرة العدم التي تدفع إليها غريزة البقاء وسنن الحياة الكونية ، وإرادة الكفاح في الإنسان.

٨٩- القرآن وقضايا العصر ص ١٥١ ٩٠- المرجع السابق ص١٥٢- ١٥٣

مع أن الدين يقول أن عقيدة البعث بدأت قبل الخطوة الأولي علي هذه الأرض فعند هبوط آدم

إلي الأرض قال الله عز وجل " قال اهبطا فيها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدي فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقي ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكي ونحشره يوم القيامة أعمي قال رب لما حشرتني أعمي وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسي ، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقي "(٩١) .

وأيضا قال تعالي " قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلي حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون "(٩٢) .

وفي قصة ولدي آدم قال التقي لأخيه الذي يريد قتله " لان بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك لتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين .."(٩٣)

فهي إذا عقيدة قديمة قدم خلق الإنسان .. وليست تطورا لفكرا واجتهاد عقلي ثم جاء الدين بعد ذلك بهذه العقيدة كما يفهم من قولها : (ومن قديم حاولت البشرية قبل عصر الأديان إن تقاوم فكرة العدم .. وجاء عصر الرسالات الدينية المعروفة لنا ، والبشرية تناضل في سبيل استنقاذ إرادة الحياة من التدمير الذي يحيق بها إن هي استسلمت لليقين بالعدم ، فبشرتها رسالات الدين بحياة أخري بعد الموت ..) كأن الإنسانية بدأت لا دينية واستمرت طويلا حتى جاء عصر الرسالات .. إن هذا يوافق أو هو مأخوذ من فكرة النشوء والارتقاء .

يقول الأستاذ سيد قطب : " أن جميع الرسالات السماوية من لدن آدم عليه السلام إلي محمد عليه الصلاة والسلام قد تضمنت عقيدة اليوم الآخر مع تضمنها لوحدانية الله سبحان وذلك خلافا لما تقرره بحوث " الأديان المقارنة" المستندة إلي نظرية النشوء والارتقاء الدورانية .

ولكن كان يحدث بعد كل رسالة أن ينحرف الناس عن استقامة العقيدة السماوية ، فيخلطوا أوشابا من الوثنية وتصوراتها السابقة علي الرسالة السماوية

واللاحقة لها ، ومن بقايا العقيدة الصحيحة ومن هذه الأوشاب الخليطة كانت تتألف عقائد وثنية جديدة قد تترقي مع الزمن بتكرار الرسالات وتأثيرها المستمر في مستوي الوثنيات التي ترتد إليها البشرية .. "(٩٤) ثم أعطي النماذج علي ذلك بما كان عند المصريين والبابليين والفرس ..

وبعد هذه العجالة السريعة إلي هذين الأمرين ننتقل إلي ما أثاره أعداء الدين من شبه _في ظنهم_ علي عقيدة البعث .. فما هي هذه الشبه في ظنهم ؟

يقول الأستاذ سعيد حوي : " أن القرآن لما عرض علي الناس عقيدة الحياة الآخرة ما كان حجة منكريها في ذلك الزمان إلا عين حجة منكريها في زماننا الحاضر .. وذلك أن هذه هي الحجة الوحيدة التي يستطيع أن يحتج بها منكرو هذه العقيدة في كل زمان ومكان .. وخلاصتها أن الحياة بعد الموت أمر لا يقبله العقل والقياس ... "(٩٥)

والواقع أن الذي قالوه لا يمثل حجة ولا شبه حجة وقد تجاوز الأستاذ سعيد حوي حينما أعتبره حجة .. فالكفار حين أنكروا البعث لم يقدموا دليلا واحدا علي ذلك وما جاء عنهم لا يزيد عن مجرد الاستبعاد المبني علي أنه أمر لم يألفوه أو يتعودوه . أضف إلي ذلك العناد الذي يركب متنه المخالف حين يعجز عن مواجهة الحجة بالحجة .

إن أقصي ما يقال في إنكارهم الشديد هو أنه مجرد ظن في تقديرهم ..وليس كل ظن راجح عند صاحبه يكون ظنا راجحا في نفسه أو في حقيقة الأمر وخاصة إذا قام الدليل اليقيني علي ضده .

والقرآن الكريم قد أنصفهم حين قال أن إنكارهم مبني علي ظن عندهم فالظن إدراك الطرف الراجح في عقل صاحبه . وما كان يصح لإنكار البعث أن يكون راجحا أبدا بعد أن قال الله فيه ما قال

٩١- سورة طه ١٢٣-١٢٧ ٩٢- سورة الأعراف ٢٤،٢٥ ٩٣- سورة المائدة ٢٨- ٢٩

٩٤- مشاهد ص ٢٣ ٩٥- الإسلام ج٤ ص١٢١

نعم قد كان ممكنا أن يترجح الإنكار لدي المنكرين لو لم يأت به الوحي أما أن يأتي في رسالات الله وبأوضح عبارة وأجلي بيان فهذا هو الخطأ والخطر في اعتقاد الكفار .

وظن الكفار قد أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالي " وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون" وفي مواجهتهم بالحجة الدامغة تحملها إليهم آيات الكتاب العزيز كان قولهم ما سجله الله عليهم في الآية التالية " وإذا تتلي عليهم آياتنا بينات ما كانت حجتهم إلا أن قالوا أتوا بآياتنا إن كنتم صادقين "(٩٦) .

وبناء علي هذا الظن في تقديرهم قالوا ما قالوه في إنكار البعث فأوهموا في عباراتهم أنه من الغرابة بمكان ومن العجائب التي لا يسيغها عقل إنسان وقد سجل القرآن عباراتهم المنكرة في أكثر من سورة قال تعالي " وقالوا أعذا ضللنا في الأرض أعنا لفي خلق جديد "(٩٧)

" وقالوا أعذا كنا عظاما ورفاتا أعنا لمبعوثون خلقا جديد "(٩٨)

" أعذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد "(٩٩)

" قال من يحيي العظام وهي رميم "(١٠٠)

وقالوا في سخريتهم الكافرة بسيدنا رسول الله صلي الله عليه وسلم " وقال الذين كفروا هل ندلكم علي رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق أنكم لفي خلق جديد أفتري علي الله كذبا أم به جنة .."(١٠١) . وبالغوا في إظهار إنكارهم بالقسم كما هي عادة من يري موقفه غير جدير بالثقة فيحاول أن ينتزع الثقة بكل وسيلة .. والقسم أكثر ما يلجأ إليه المريب .

قال تعالي " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلي وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون "(١٠٢) .

وهكذا التوي الحديث علي السنة هؤلاء الكفار أصحاب القلوب الملتوية والنفوس المستكبرة لا يقولون إلا كذبا ، ولا يرددون إلا زعما لا سناد لهم

أكثر من الظن " وان الظن لا يغني من الحق شيئا "(١٠٣) وهو لا يعدو ظن الجاهلية .. وزعم المبطلين : أحرى أن يقال لهم :

"و ذلكم ظنكن الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين "(١٠٤)

" زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلي وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك علي الله يسير "(١٠٥) وهكذا سجل القرآن بكل أمانة مقالة أعدائه .. وإن كانت اتهامات وبذاءات وزورا من القول وبهتانا فقوي الحجة لا يخشى الضعفاء .. والمستعلي بالحق لا يخشى أهل الصغار .. وصاحب القدم الثابت واليقين الراسخ لا يأبه بمن سفهت عقولهم وأفئدتهم هواء . بل إن ذكر باطلهم بجانب ذكر الحق يضاعف من قوة الحق ويزيد الباطل وهنا علي وهن .

وأخيرا بقي ذكر استدلالات القرآن العظيم علي اليوم العظيم .. وما كان أغني القرآن أن يستدل علي حق جاء من عند الله لأنه دليل علي نفسه فلا حاجة له إلي برهان لكن لما كان يستهدف إقناع العقل وطمأنة القلوب والعقل يستريح إلي الدليل ، وبالبرهان يقوى اليقين .. ومن أجل أن يرد شغب المشاغبين ويجعل قولهم سرابا يحسبه الظمآن ماء أو هباء تذروه الرياح .. من أجل ذلك وغير ذلك أورد مجموعة من الاستدلالات كل استدلال منها يلقم المكذب حجرا .. ويخرس صوت الباطل فلا يكاد يبين .

وممن تكلم في هذه الاستدلالات بشئ من الإيجاز المبين المرحوم الشيخ محمود شلتوت في تفسيره إذ قال : إن للقرآن الكريم طرقا شتي في الاستدلال علي قضية البعث فهو يستدل عليها.

يخلق السماوات والأرض :

" أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر علي أن يخلق مثلهم "(١٠٦)

" أولم يرو أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر علي أن يحيي الموتى "(١٠٧) .

٩٦- سورة الجاثية ٢٤- ٢٥ ٩٧- سورة السجدة آية ١٠ ٩٨- سورة الاسراء٤٩

٩٩- سورة ق٣ ١٠٠- سورة يس ٧٨ ١٠١- سورة سبأ٧-٨ ١٠٢- سورة النحل ٣٨

١٠٣- سورة النجم ٢٨ ١٠٤- سورة فصلت ٢٣ ١٠٥- سورة التغابن ٧ ١٠٦- سورة يس ٨١ ١٠٧- سورة الأحقاف ٣٣

_ ويستدل بخلق الإنسان :

" يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإن خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة .. "(١٠٨) .

_ ويستدل بقياس الخلق الثاني علي الأول :

" أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد " (١٠٩) .

" فسيقولون من يعبدنا ؟ قل الذي فطركم أول مره " (١١٠) .

" قل يحيها الذي أنشأها أول مره وهو بكل خلق عليم" (١١١) .

" وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه " (١١٢) .

_ ويستدل بإحياء الأرض بعد موتها :

" وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بان الله هو الحق وانه يحي الموتى وانه على كل شئ قدير " (١١٣) .

_ ويستدل بأن الحكمة والعدل يقضيان بالحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، كما يقضيان بان ينال المحسن جزاء إحسانه والمسيء جزاء إساءته ، وهذان شأنان هامان إذ كثيرا ما يرتحل الناس عن الدنيا دون أن يعرفوا الحق فيما اختلفوا فيه ودون أن يسهل عليهم سلوك طريق النقاء لمن نسي نفسه ، وإذا فلا بد من دار أخرى .

" ليجزى الذين امنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون " (١١٤) .

ثم" ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين " (١١٥) .

ويستدل أيضا بأن الإعادة التي يستبعدها المعاندون لا تتوقف إلا على العلم والقدرة وهما عند الله من مرتبة ذاته العلية ، لا يعزب عن علمه شئ ، ولا يعجزه شئ " قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ" (١١٦) .

" ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب إليه من حبل الوريد " (١١٧).

ومن العجيب في هذا الاستدلال الأخير أن نرى الفيلسوف الألماني (كانت) قد اهتدى إليه . كما سبق أن ذكرنا رأيه في ضرورة البعث ولا بأس من إعادة ذكر رأيه لنرى المطابقة الكاملة بين استدلال القران الكريم وبين احد المفكرين من الفلاسفة الكبار الذي لم يقرأ قرانا . . فهو يتناول الأشياء من وجهة نظر عقليه فلسفيه محضه يقول الدكتور يوسف موسى عنه " انه يرى أن الاتحاد بين الفضيلة والسعادة غير واقع في هذه الحياة بل غير ممكن ، وتلك مشكله يجب حلها حلا عقليا ، انه لابد من فرض وجود الله وخلود الروح وان يكون الإله كامل العلم ليعلم تماما قيمه كل إنسان وعمله وما يستحقه من سعادة كما يكون كامل القدرة ليتخطى قوانين الطبيعة، التي لا تربط بين الفضيلة والسعادة برابطه العلة والمعلول – ويثيب الفاضل .

كما يرى أن هذا كله لا يكون على كماله إلا في الدار الآخرة التي يكون فيها الخير جزاء الفضيلة والشر جزاء الرذيلة .." (١١٨) .

هذا وهناك أنواع من الاستدلالات غير ما ذكره الشيخ شلتوت منها ذكر أن الإنسان خلق لهدف وأنشأه الله لحكمه . . وأوجده لغاية ، واستخلفه في الأرض لرسالة . .

ومرد ذلك لأمرين : الأمر الأول أن هذا الإنسان خلق الله الذي أحسن كل شئ خلقه ، وصنعة الله الذي أتقن كل شئ صنعه وأفعال الله عامة ذات هدف يليق بجلال الله وكماله فكل صنعه دليل صانعها . . وكل حادثه عنوان محدثها . .

فلا بد إذن أن يكون خلق هذا الإنسان لهدف كبير وغاية عظمى وخاصة انه قد خلق في أحسن تقويم وسواه الله وعدله على أرقى ما يكون الخلق والإبداع والتعديل في عالم المخلوقات . .

١٠٨- سورة الحج ٥ ١٠٩- سورة ق ١٤ ١١٠- سورة الإسراء ٥١ ١١١- سورة يس ٧٩

١١٢- سورة الروم ٢٧ ١١٣- سورة الحج ٥ ١١٤- سورة الأنعام ٧٠

١١٥- سورة النمل ٣٩ ١١٦،١١٧- سورة ق ٤-١٦ ١١٨- الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص١٥٨- ١٥٩

وما ينبغي أن يكون مصير الإنسان بعد ذلك كما يقول الأستاذ سيد قطب :" كمصير أية حشره أو دابة أو زاحفة حياة محدودة لا يتم فيها شئ كامل أبدا ثم ينتهي كل شئ إلى الأبد "(١١٩) .

الأمر الثاني : أن الله وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم كرمه سبحانه وفضله على كثير ممن خلق كما قال عز وجل " ولقد كرمنا بني ادم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " (١٢٠) .

ومن هذا التكريم وذاك التفضيل أن الله اسجد له الملائكة واستخلفه في الأرض واستعمره فيها.. وسخر له عوالم اكبر منه ، سخر له السماوات والأرض وما فيهن من شمس وقمر ونجوم وهواء وماء وحيوان وجماد ونبات . . لقد أحاطت به نعم الله من كل نواحيه فهو يغدو ويروح وينام ويقوم ويتقلب في نعم الله . . حتى الملائكة المكرمون يحوطونه ويحرسونه " وان عليكم لحافظين كراما كاتبين " (١٢١) .

" له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله " (١٢٢) .

كل هذه وغيرها نعم لا تحصى " الله الذي خلق السماوات والأرض وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات زرقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار واتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها" (١٢٣) .

"وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حليه تلبسونها. ." (١٢٤)

"الم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهره وباطنه" (١٢٥).

" وسخر لكم ما في السماوات والأرض جميعا منه "(١٢٦)

فهل الإنسان الذي سخر الله له كل هذا وخلقه علي هذا المستوي من الخلق وكرمه هذا التكريم .. وفضله هذا التفضيل .. وجعل كل هذه العوالم في خدمته ثم هو بعد ذلك يكفر نعمة ربه ؟ ويجحد فضل خالقه ؟ ويشكل عدوانا علي دينه وعباده ومخلوقاته أو هو يقر لله بكل ذلك ويحاول أن يرضيه بكل فعل أو قول أو فكر يهجع قليلا من الليل ليقوم بين يديه ، ويجهد في نفع عباده .. ونشر رحمته . وتمكين شرعه هل يمكن بعد كل ذلك أن ينتهي مصير مثل هذا المخلوق بهذه البساطة بعد موته إن ذلك لو كان لمثل شيئا لا يليق بخالقه .. ولبئس المخلوق هو لو كان الموت نهايته ولأجل ذلك قال الله تعالي :

" أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون"(١٢٧)

" أيحسب الإنسان أن يترك سدي ألم يك نطفة من مني يمني ثم كان علقة فخلق فسوي فجل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر علي أن يحيي الموتى"(١٢٨)

يقول الأستاذ سعيد حوي :

" إن الإنسان الذي أعطي الوجود كله لا يعامل كما يعمل التراب وأمثاله فهو سيطالب بقدر ما أعطي ويحاسب وهذا منطق الوجود كله ، علي قدر ما تعطي تطالب ، فلن يترك الإنسان وقد أعطي ما أعطي مهملا ، بل سيحاسب علي كل صغيرة وكبير من قبل ربه عز وجل والله الذي خلقه من نطفة ثم طوره قادر علي أن يعيده مرة ثانية ليحاسبه "(١٢٩) .

ومن الاستدلالات أيضا أن الله عز وجل أجري بالفعل أحداث واقعية فيها إحياء بعد موت أو بعد ثبات عميق امتد مئات السنين حتى لا يترك أدني شبهة أو إثارة من ريب في أمر هذا البعث

١١٩- مشاهد القيامة في القرآن ص١٣ ١٢٠- سورة الإسراء ٧٠ ١٢١- سورة الانفطار ١٠-١١

١٢٢- سورة الرعد ١١ ١٢٣- سورة إبراهيم ٣٢-٣٤ ١٢٤- سورة النحل ١٢

١٢٥- سورة لقمان ٢٠ ١٢٦- سورة الجاثية ١٣ ١٢٧- سورة المؤمنون ١١٥

١٢٨-سورة القيامة ٣٦-٤٠ ١٢٩- الإسلام ج٤ ص٦٤

من ذلك ما ذكره الكتاب العزيز " وإذ قلتم يا موسي لن نؤمن لك حتى نري الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون"(١٣٠) .

" ألم تري إلي الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم"(١٣١) .

" وإذ قتلتم نفسا فادرءتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا أضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون"(١٣٢) ومن ذلك قصة الفتية من أهل الكهف " وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها..(١٣٣) .

وكذلك " الذي مرعلي قرية وهي خاوية علي عروشها... فأماته الله مائه عام ثم بعثه "(١٣٤)

وقول إبراهيم " رب ارني كيف تحيي الموتى .. "(١٣٥)

ونوم الإنسان الذي يشبه الموت حتى قيل فيه أنه الموتة الصغرى ثم بعثه من نومه " وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمي ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون "(١٣٦) .

وبعد فإن تتبع حديث القرآن عن البعث سوف يأخذنا إلي آفاق بعيدة لن ينتهي الحديث فيها ولن يسعها وقت وجهد بالنسبة لهذه العجالة التي توجز الوقت فيها _غير أنه لا يفوتنا ذكر إشارة خفيفة وسريعة نختم بها حديثنا عن هذه القضية الكبيرة وهي أنه توجد آيات كثيرة في الكتاب العزيز تتحدث عن البعث لا تتناول لونا من ألوان الاستدلال وإنما هو استعراض لبعض مشاهد القيامة وما يلقي الناس فسه وموقفهم منه وكأن القيامة بالفعل حاضرة والناس في مواقف الجزاء .. في جنات النعيم أو في سواء الجحيم ..

من ذلك قوله تعالي " ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ، انظر كيف كذبوا علي أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون"(١٣٧)

" ولو تري إذ وقفوا علي النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، ولو تري إذ وقفوا علي ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلي وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون"(١٣٨) .

وهكذا يحول البيان المعجز الآخرة التي لم تأت بعد كأنها الحاضر الذي يعيشه الإنسان ويصبح الحاضر الذي يعيشه بالفعل كأنه ماضي سحيق تفصله عن الإنسان آماد وأبعاد "إنا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم "(١٣٩) .

والشيخ شلتوت يري" أن هذا وصف عيني لمظاهر البعث يأخذ بالقلب ويثير الوجدان "(١٤٠)

ويعتبره الأستاذ محمد قطب طريقة أخري لمواجهة المكذبين بالبعث تتجاوز أذهان المكذبين فلا تدخل معها في جدل وإنما تستهدف تأثيرا وجدانيا .. يقول : " أنهم منكرون للبعث أصلا لا تصدقه عقولهم ولا نفوسهم ولكن القرآن هنا لا يجادلهم ليثبت لهم بالمنطق حقيقة البعث ، وإنما يلجأ إلي التأثير عليهم من جانب آخر وجداني علي الأكثر _ وهو عرض صورهم عليهم في نار جهنم لتنفعل وجداناتهم – بصرف النظر عن أذهانهم– فتقتنع اقتناعا وجدانيا بحقيقة البعث "(١٤١) .

والذي أراه أنه قد يكون هذا الاستنتاج صحيحا ، غير أنه أولي أن ينظر الباحث إلي النص من زاوية أخري يلاحظ فيها المتكلم من جهة والمخاطبين من جهة ثانية أما الجهة التي يلاحظ فيها المتكلم فعليه أن يضع في اعتباره أن المتكلم هو الحق عز وجل ولهذا وجب أن يري في كلامه

١٣٠– سورة البقرة ٥٥– ٥٦ ١٣١– سورة البقرة ٢٤٣ ١٣٢– سورة البقرة ٧٢

١٣٣– سورة الكهف ٢١ ١٣٤– سورة البقرة ٢٥٩ ١٣٥– سورة البقرة ٢٦٠

١٣٦– سورة الأنعام ٦٠ ١٣٧– سورة الأنعام ٢٢–٢٤ ١٣٨– سورة الأنعام ٢٧–٣٠

١٣٩– دراسات قرآنية ص٨١ ١٤٠– تفسير القرآن الكريم ص٣٨٤

١٤١– دراسات قرآنية ص٧٣

صفاته العليا وأسماءه الحسني وأن يعي جيدا أن الكلام صورة قائله .. والحديث مرآة صاحبه .. وإذا كان من صفته سبحانه أنه الجبار المتكبر الكبير المتعال لزم أن يعكس كلامه شئ من هذه الصفات .

وإذا كان الله يخاطب البشر علي المستوي الذي خلقهم عليه فان علي البشر أيضا أن يشربوا من حلال حديثه إليهم صفات جلاله وكماله .. وعزته وكبريائه وليس مما يليق بصاحب الكبرياء والعظمة والجلال والكمال أنه كلما تحدث عن شئ أكده بقسم أو زيله بدليل ، أو ألحق به أي نوع من أنواع التوكيد .. كلا بل إن العكس هو الصحيح فيكفي أن يكون هذا الخبر صادرا عنه حتى تقتنع به العقول وتطمئن به القلوب وتستروح به الأرواح ويسجد له الكيان كله لأنه صادر من الحق الأعلى . ونابع من النور الأسمى ومن أصدق من الله قيلا ومن أحدث من الله حديثا أنه سبحانه ليس في حاجة إلي أن يؤكد أو يدلل فكون الحديث منه وصادرا عنه يكفيه ذلك دليلا وتأكيدا بل ذلك آكد المؤكدات وأدل الأدلة جميعا .

ويكفي فقط من أجل إبطال كيد الشيطان أو تلبيس إبليس أو دحض دعاوى المكذبين وكل ختار كفور .. ومن أجل التنويه بموضوع الكلام وأن القضية ذات بال .. يكفي أن تتضمن القضية شيئا من التأكيدات وبعض من الأدلة يتحقق بها الهدف وتشفي من في قلبه مرض .

ومن لم يؤمن بما سبق معه الدليل – وما أكثره – فلن تحوله الأدلة بعد ذلك إلي مؤمن قط ، فلقد كان القرآن العظيم أكبر آيات الله .. وأبلغ معجزات الرسل ومع ذلك كان الكفار يطلبون معجزات أخري غيره فكان رد القرآن " أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم .."(١٤٢) إن من لم يكفه القرآن فلن تكفيه كل معجزات الأنبياء لو جمعت لهم لأن التكذيب ليس بسبب عدم الدليل وإنما هو العناد والاستكبار والجحود قال تعالي " .. فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون"(١٤٣)

ولقد اقترح المكذبون على الرسول آيات معينة ذكرت في قوله " وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا ينبوعا .. " إلي أن قالوا " أو ترقي في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاب نقرأه"(٤٣)

فكان من رد الله عليهم " ولو فتحنا باب من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون "(١٤٥) ومعني ذلك أن الله لو فتح لهم بابا من السماء فرفعهم إليها وليس الرسول هو الذي عرج به لكذبوا ما هم فيه وقال " سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون " .

لذلك أقول لا يجب أبدا أن تحمل كل قضية معها دليلا وتأكيدا وقسما . فإن الحق دليل نفسه وهو برهان صدقه .. وعلي الناس أن يذوقوا استكبار الحق واستعلاء الحقيقة .. كما ينبغي لهم أيضا أن يدركوا أن من اللائق بجناب الله الاعتداد بعظمة الحق والحقيقة وأن من الواجب علي عباد الله أن يتحولوا إلي أذن صاغية وبصيرة واعية وسريره خاشعة إذا ما كان المتكلم رب العالمين لأنه مالك الدنيا ومالك يوم الدين نواصي العباد بيده .. وملكوت السماوات والأرض في قبضته .

إن من ينزع دائما إلى الإستدلأل والقسم والأيمان كأنه يستشعر عدم صدقه أو يظن الريبة في خبره .. أما الحق عز وجل فحاشاه ثم حاشاه .. انه يقول ويقضى ويحكم وعلى الناس أن يأخذوا ذلك بما ينبغي له من جلال وكمال وكبرياء واستعلاء إذا قال فقوله الحق ولا مبدل لكلماته ، وإذا حكم فحكمه العدل ولا معقب لحكمه ، وإذا قضي فقضاؤه المبرم ولا راد لقضائه . بل علي الناس إذا سمعوا منه أن يكونوا كما ينبغي لعباد الله " إذا تتلي عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا " قال تعالي " إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ، ويخرون للأذقان يبكون ويزيد هم خشوعا"(١٤٦) .

١٤٢- سورة العنكبوت ٥١ ١٤٣،١٤٤- سورة الإسراء ٩-٦٣ ١٤٥- سورة الحجر ١٤

١٤٦- سورة الإسراء ١٠٧- ١٠٩

وأما الجهة التي يلاحظ فيها المخاطبين فانه معلوم أن الله عز وجل يخاطب الناس جميعا بل انه يخاطب الإنس والجن معا .. ومن المعلوم ضرورة أن الجميع ليسوا علي درجة سواء ولا مستوي واحد وليسوا جميعا علي عقيدة واحدة وفكر مشترك .. بل أصحاب العقيدة الواحدة ليسوا علي مستوي واحد في الإيمان أو العقل والفكر .

لكل ذلك وغيره لم يكن لزاما أن يكون الحديث إلي الجميع بلغة واحدة بل الأدعي أن يتغير الأسلوب بتغير المخاطبين فإن كان بعضهم يحتاج إلي تأكيد فان البعض الآخر لا يحتاج .. وإذا كان بعضهم يأخذ الحديث مأخذا عقليا فان غيرهم يميل إلي حديث الوجدان والعاطفة وإذا نظر البعض إلي الكلام فان نظر غيرهم إلي المتكلم .

وإذا كان البعض يستمع إلي القرآن ثم يخرج منه وكأنه لم يسمع شيئا كما قال تعالي " ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله علي قلوبهم واتبعوا أهواءهم "(١٤٧) .

فان من الناس كما يقول الإمام الغزالي من كان " يري في الكلام المتكلم ، وفي الكلمات الصفات .. فهو مقصور الهم علي المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره "

يقول جعفر الصادق رضي الله عنه " والله لقد تجلي الله عز وجل لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون "(١٤٨) .

ومن كان علي هذا المستوي لا يلتفت إلي نوع توكيد أو التماس دليل والبحث عن برهان .. لأنه يتلقاه بعين قلبه ونور بصيرته .. ورقة مشاعر .. يتلقاه بالهام وجدانه .. وشفافية روحه .. ورفاهة إحساسه ..أنه يود أن يصل إلي قرب قريب ومقام كريم .. يعرف فيه نفسه .. ويري ربه حتى إذا تجلي له الله بعز الربوبية حقق أو تحقق بذل العبودية .

والحمد لله رب العالمين

١٤٧- سورة محمد ١٦ ١٤٨- إحياء علوم الدين ج٣ ص٥٢

حواشي البحث:

١- دراسات قرآنية سيد قطب ص٦٣ ٢- سورة البقرة آية ١٧٧

٣- سورة البقرة آية ٢٣٢

٤-سورة آل عمران آية ١١٤ ٥- سورة الأحزاب آية ٢١ ٦- سورة التوبة آية ٢٩

٧- سورة البقرة آية ٨ ٨- سورة النساء آية ٣٨

٩- سورة الزمر آية ٤٢ ١٠- سورة الأنعام آية٦٠

١١- سورة ق آية ١٨ ١٢-سورة يونس آية ٦١

١٣- سورة البقرة آية ٢٨٤ ١٤- سورة الإسراء آية ٦٣

١٥- سورة الأعراف آية١٦-١٨ ١٦-سورة الأعراف آية ٢٤-٢٥

١٧سورة طه آية ١٢٣-١٢٤

١٨- سورة نوح آية ١٧-١٨ ١٩- سورة المؤمنون آية ٣٥-٣٧

١٨- سورة نوح آية ١٧-١٨ ١٩- سورة المؤمنون آية ٣٥-٣٧

*أخرجه البخاري عن أبي هريرة ج٤ص١٠١

**أخرجه البخاري عن أبي ذر ج٤ص٧٧

٢٠- سورة طه آية ١٥-١٦

٢١- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة علي الإسلام ص٣٤

٢٢- مشاهد القيامة ص٣٠ ٢٣- الأسفار المقدسةص٥٥ ٢٤- سورة البقرة آية١١١

٢٥-الأسفار المقدسة ص٣٤-٣٥ ٢٦- مشاهد القيامة في القرآن ص١٤-١٥

٢٧- مشاهد القيامة في القرآن ص٢٠-٢١ ٢٨- مشاهد القيامة في القرآن ص١٤

٢٩- سورة محمد آية١٢ ٣٠- سورة الأعراف آية ١٧٩

٣١-سورة الأعراف آية١٧٥-١٧٦ ٣٢-سورة البقرة آية ١٣٨

٣٣- القرآن وقضايا الإنسان ص١٥١ ٣٤- عقيدة المسلم ص٢٣٣

٣٥- مشاهد القيامة في القرآن ص١٣-١٤

٣٦- الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص١٥٨- ١٥٩

٣٧- الإسلام الجزء الرابع ص١٠٩

٣٨- فلسفة المبدأ والميعاد تأليف محمد جواد ص١١٩

٣٩- سورة الزمر آية ٤٥

٤٠- سورة العنكبوت آية ٦٤ ٤١- سورة الرعد آية ٢٦

٤٢- سورة القصص آية٧٧ ٤٣- سورة الأحزاب آية ٢١ ٤٤- سورة فاطر آية ٣٦
٤٥- سورة الدهر آية٢ ٤٦- سورة الأحزاب آيــة ٧٢ ٤٧- ســورة النــور٥٥
٤٨- سورة النحل ٩٧ ٤٩- سورة الذاريات ٥٦ ٥٠- سورة الإسراء ٤٤
٥١- سورة المؤمنون٢٦-٢٨ ٥٢- سورة فصلت ١١
٥٣- سورة الأعراف آية٢٧ ٥٤- سورة المائدة آية ٣٠ ٥٥- آل عمران آيــة١٤
٥٦- سورة الكهف آية٧ ٥٧- سورة الملك آية٢ ٥٨- ســورة الأنبيــاء آيــة ٣٥
٥٩- سورة الفجر آية ١٥-١٧ ٦٠- سورة الأنعام آية ١٦٥
٦١- سورة المائدة آية٤٨ ٦٢- سورة النمل آية ٣٩-٤٠
٦٣،٦٤- سورة الأنبياء آية ٨٣-٨٤ ٦٥- سورة ص آية ٤٤
٦٦- سورة البقرة آية ١٠٥ ٦٧- سورة العنكبوت آية٢-٣
٦٨- سورة آل عمران آية ١٧٩ ٦٩- سورة محمد آية ٣١
٧٠- سورة المنافقون آية ٨
٧١- سورة الأنعام آية ١٣٧ ٧٢- سورة النساء آية ٨٩
٧٣- سورة البقرة ١٢٠ ٧٤- سورة الأنفال ٣٦
* أخرجه الترمذي عن معاذ بن جبل ج٥ ص١٢
٧٥- سورة التوبة ١٠ ٧٦- سورة البقرة ٤٩ ٧٧- سورة القتال ٤
٧٨- سورة التوبة ١٤-١٥ ٧٩- سورة هود ٦١ ٨٠- سورة الأنفال ٤٢
٨١- سورة الروم ٤٧ ٨٢- سورة الصافات ١٣٧ ٨٣- سورة المجادلة ٢١
٨٤- سورة النساء ٧٤ ٨٥- سورة إبراهيم ٧
٨٦- سورة يونس ٦٤ ٨٧- سورة الأنبياء ٣٧
٨٨- سورة الإسراء ١١
* رواه مسلم عن أبي ذر قاله في دليل الفالحين ج٨ ص١٨١
٨٩- القرآن وقضايا العصر ص ١٥١ ٩٠- المرجع السابق ص١٥٢- ١٥٣
٩١- سورة طه ١٢٣-١٢٧ ٩٢- سورة الأعراف ٢٤،٢٥
٩٣- سورة المائدة ٢٨- ٢٩ ٩٤- مشاهد ص ٢٣
٩٥- الإسلام ج٤ ص١٢١
٩٦- سورة الجاثية ٢٤- ٢٥ ٩٧- سورة السجدة آية ١٠ ٩٨- سورة الاسراء٤٩
٩٩- سورة ق٣ ١٠٠- سورة يس ٧٨ ١٠١- سورة سبأ٧-٨
١٠٢- سورة النحل ٣٨ ١٠٣- سورة النجم ٢٨ ١٠٤- سورة فصلت ٢٣

١٠٥- سورة التغابن ٧ ١٠٦- سورة يس ٨١ ١٠٧- سورة الأحقاف ٣٣
١٠٨- سورة الحج ٥ ١٠٩- سورة ق ١٤ ١١٠- سورة الإسراء ٥١
١١١- سورة يس ٧٩ ١١٢- سورة الروم ٢٧ ١١٣- سورة الحج ٥
١١٤- سورة الأنعام ٧٠ ١١٥- سورة النمل ٣٩
١١٦،١١٧- سورة ق ٤-١٦ ١١٨- الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص١٥٨- ١٥٩
١١٩- مشاهد القيامة في القرآن ص١٣ ١٢٠- سورة الإسراء ٧٠
١٢١- سورة الانفطار ١٠-١١ ١٢٢- سورة الرعد ١١
١٢٣- سورة إبراهيم ٣٢-٣٤ ١٢٤- سورة النحل ١٢ ١٢٥- سورة لقمان ٢٠
١٢٦- سورة الجاثية ١٣ ١٢٧- سورة المؤمنون ١١٥
١٢٨-سورة القيامة ٣٦-٤٠ ١٢٩- الإسلام ج٤ ص٦٤
١٣٠- سورة البقرة ٥٥- ٥٦ ١٣١- سورة البقرة ٢٤٣ ١٣٢- سورة البقرة ٧٢
١٣٣- سورة الكهف ٢١ ١٣٤- سورة البقرة ٢٥٩ ١٣٥- سورة البقرة ٢٦٠
١٣٦- سورة الأنعام ٦٠ ١٣٧- سورة الأنعام ٢٢-٢٤
١٣٨- سورة الأنعام ٢٧-٣٠ ١٣٩- دراسات قرآنية ص٨١
١٤٠- تفسير القرآن الكريم ص٣٨٤ ١٤١- دراسات قرآنية ص٧٣
١٤٢- سورة العنكبوت ٥١ ١٤٣،١٤٤- سورة الإسراء ٩-٦٣
١٤٥- سورة الحجر ١٤ ١٤٦- سورة الإسراء ١٠٧- ١٠٩
١٤٧- سورة محمد ١٦ ١٤٨- إحياء علوم الدين ج٣ ص٥٢